ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

البعد الأنثروبولوجي للجسد الأنثوي في الرو اية النسائية الجز ائرية

الأستاذة: بن داود شفيقة
جامعة الجز ائر2

الملخص:

تحدثت في هذا المقال عن الحمام العمومي ،ومدى حميميته في حياة الأنثى – الجزائرية – خاصة ،باعتباره فسحة مطلوبة أسبوعيا للحرية والتنفيس عن النفس وعن الجسد الأنثوي المحروم والمهمش ، بحيث تطرقت إلى ما يتطلبه الذهاب إلى الحمام من طقوس وأدوات ليتم بها طهارة الجسد الأنثوي كالكاسة والطاسة...بالإضافة إلى ما يحمله فضاء الحمام من دلالات ترمز للأنوثة بكل أبعادها كالتداوي بالأعشاب والاهتمام بجمالية الجسد المدجن اجتماعيا وثقافيا للآخر /الرجل ،وتبادل الأسرار والحكايات الأنثوية من ثرثرة ،تبجح وتحرر من قيود العيب والممنوع والحرام .فالحمام يعد في نظر المرأة مدرسة لتعلم الحياة من خلال استقراء تجارب الآخرين ؛ وسّرد حكاياتهم لأخذ العبر .فضلاً عن الغسل والتطهر لإثبات أنوثة المرأة وفتنتها

Abstract:

I'd spoken in this article about public baths (hammam in arabic) and his intimacy especially in Algerian women's life. They are considered like an outing weekly required for breathing and freedom to deprived and marginalized female body.

1 . تطهير الجسد الأنثوي المسلوب للآخر:

يعد الحمام ملحقا بيتيا لسد الكثير من الحاجات البيولوجية في واقع الحياة الأنثوية، فهو حق مشروع للمرأة يصعب على الرجل رفضه لأسباب رئيسة تتمثل في كون الحمام مجالا نسويا خالصا بعيد عن عالم الذكورة، إضافة إلى مدى حاجة المرأة إليه بحكم تكوينها البيولوجي الذي يدفعها لتحقيق « رغبتها كأنثى في تجميل جسدها وإروائها لرغباتها

النرجسية أو الجنسية »[1] على حد سواء. فلا يمكن تعويض الحمام العمومي بالحمام المنزلي في نظر النسوة لأنه لا غنى عن حرارة الحمام العمومي ونظافته للجسد الأنثوي والانتعاش الذي يمنحه إياه عقب الغسل باعتباره فضاءً للاسترخاء يعيد للجسد حيويته ونظارته ونشاطه المعتاد ويهيئه لطقوس الطهارة والغسل والوضوء لتحقيق سمة الجمال والكمال المنشود، بحيث يصبح هذا الجسد الغاوي في حالة تأهب لأي تواصل جسدي مع الآخر/الزوج.

فضلا عن ذلك قد تطغى نرجسية الأنثى في هذا الفضاء المرغوب إذ نجد المرأة تتفرغ كليا لجسدها لكي تعتني به عناية مطلقة فتدلكه وتنظفه وترعاه كطفل صغير يحتاج لكل أنواع الاهتمام « الأمر الذي جعل المرأة تقترب أكثر من جسدها باعتباره رأسمالها الأساسي في عالم الرجال »[2] فهي موجودة طالما أنها تحافظ على جمالها ونظرتها وكلما ذبلت سماتها البيولوجية ذبل معها كيانها ووجودها كأنثى، مما يجعلها منتبهة باستمرار لتلك التغيرات الزاحفة نحوه، إما بحكم الزمن، كالتقدم في السن، أو الظروف البيولوجية الطارئة كالحمل، الولادة، النفاس...

يمثل الحمام في حميمية المرأة دعوى صريحة إلى أقاليم اللذة والرغبة ومفتاح عوالمها، فالذهاب إلى الحمام العمومي إشهارا حسيا تتعامل معه المجتمعات العربية وخاصة المجتمع الجزائري بحفاوة. كما يعد احتفالا مطلقا يعبر عن عقيدة الافتتان بالجسد ولحظة استمتاع قصوى في تذليل الذات الأنثوية وإشعارها بوجوب رسم حدود العناية بالجسد وتجميله من خلال كيفية الإحساس به والتعبير عنه. وهو من جهة أخرى نوع من التطهير المبهج للنفس الأنثوية من خلال استحضار تبعات الحمام استحضارا لا يقاوم لحميمية المكان ولوزمه الخاصة من « الكاسة، ذلك القفاز الخشن، وثلاث طاسات نحاسية جميلة الشكل والزخرفة، مملوءة بالحناء والغسول الطبيعي والصابون السائل إلى جانب "المحبس" وهو دلو نحاسي يملأ من باب الاحتياط ويترك جانبا للشطف »[3] إضافة إلى الزيوت الطبيعية المنتقاة بعناية والعطور المستخلصة من أريج الأزهار إلى

---

[1] خلود السباعي، الجسد الأنثوي وهوية الجندر، جداول للنشر والتوزيع ،بيروت ،لبنان،ط1،2011م ،ص 101.

[2] المرجع نفسه، ص 107.

[3] فضيلة كريم، الحمامات موجز تاريخ الحمامات، ترجمة: حضرية يوسفي، دار النشر، دحلب، الجزائر، 2007م، ص 61.

جانب ذلك تحتوي هذه اللوازم أيضا على « مناشف للجسم ومنشفة خاصة للرأس تسمى "بنيقة" يتم تطريزها بعناية فائقة وإزارا قطنيا يوضع على الحقيبة، وإزارا آخر يفرش فوق الأرض للجلوس عليه بعد الاستحمام بغية التقاط الأنفاس »[1] فضلا عن بخار الماء الذي ينساب فوق الجسد فيغمره بالدفء والحرارة والراحة والماء المتدفق بغزارة من المنابع الرخامية راسما خطوط الجسد الأنثوي ومداعبا إياه بسلاسة وانسيابية تنعش الروح وتريح الجسد وتطهره من كل الأثام والأوساخ وعهود من العنف والاستلاب للآخر/الرجل.

لقد أصبح الحمام العمومي فضاءً للتحرر والانفتاح على العالم الخارجي بالنسبة للنساء ككل وذلك ما جعلهن يسعين جليا لربط الجسد الأنثوي بالنجاسة (دم الحيض والنفاس) « لكي يجعلنّ من ذلك فرصة للتحرر والانفتاح على المجال الخارجي »[2] فالحمام في نظر جميع النساء مرادفا للقاء وتبادل الأخبار مما دفع بهن للمطالبة بل الإلحاح المستمر للولوج إلى هذا العالم أسبوعيا بغية تحقيق الطهارة والتجميل ظاهريا. أما باطنيا فمن أجل ممارسة طقوس التطيب والتداوي بالأعشاب والزيوت الطبيعية والتجميل. فضلا عن الإطلاع على خفايا وأسرار الأنوثة الحميمة بإقامة علاقات ولقاءات تساعد النسوة على نقل الأخبار واقتسام الأفراح والأتراح والأحاديث والاهتمامات « ومنها الفضول والرغبة في التجسس على الأخريات أو الالتقاء بصديقة أو انتقاء فتاة للزواج ...»[3] كما هي العادة حتى في أيامنا هذه. فالحمام هنا بمثابة « مدرسة لتعلم الحياة من خلال استقراء تجارب الآخرين، وسرد الحكايات لأخذ العبر »[4] وهو شأن أم حياة في "فوضى الحواس"، التي تعتبر الحمام بمثابة المضافة يتم فيها الثرثرة وتبادل الحكي بكل أنواعه ، إضافة إلى الفضول والرغبة في التجسس على الآخرين والتباهي بالممتلكات من ثياب، حلي... وما شابه.

---

[1] المرجع نفسه، ص 61.

[2] خلود السباعي ،الجسد الأنثوي وهوية الجندر، ص 101.

[3] فضيلة كريم، الحمامات موجز تاريخ الحمامات، ص 63.

[4] فاطمة كدو، تطريز الحكي في كتابات ليلى أبو زيد، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2015م، ص 61.

« في الو اقع كنت أتفهم منطقها، الحمام هو المكان الذي يمكن أن تلتقي فيه بكل نساء المدينة، ومثلهن يمكنها أن تثرثر وتحكي ما جد في حياتها وتباهي بمشترياتها الجديدة، وصيغتها، وثيابها التي لم يرها رجل »[1].

وبالنظر لكل ما سبق ذكره عن الحمام العمومي باعتباره فضاءً مؤنثا مستلبا بامتياز هو أيضا فضاء للمراقبة والضدية إذ يسمح للذات بالهروب من سلطة الآخر (الرجل، المجتمع) المستبدة والسائدة إلى فضاء أرحب يتسم بالحركة والترفيه عن النفس والجسد معا وذلك بإعادة تصور علاقة النساء بأجسادهن خارج سلطاوية الذكورة المعهودة. فالحمام فضلا عن كونه مكان للاغتسال والتطهير للأجساد الأنثوية المدجنة للعادات والقيم الباطريركية فهو أيضا مكان ترفع فيه النساء الحجب وتصرح فيه بكل المكبوتات والمسكوت عنه بالثرثرة البذيئة، الإيروسية، كوصف حميمية الجسد الأنثوي مع الآخر، الكلام عن خفايا الرغبة وتبعاتها... فتخرج الأنثى بذلك من دائرة المحضور إلى دائرة المباح حتى وإن كان لا أخلاقي، ومن دائرة الحصار والمراقبة للكلام والسلوك إلى فضاء يسمح لها فيه بولوج عالم الكلمات المتوارية خلف اضطهاد الآخر لها. فها هي النسوة في حمام "دفوج" في رواية "اكتشاف الشهوة" يتحدثن عن الجنس وحميميات الليالي الشبقية بين الأزواج بكل تبجح دون وجود رادع ديني أو أخلاقي يحدهن ودون وجود قانون العيب، التستر، الممنوع يوقفهن.

« كنت أجد متعة في رؤية أجساد النساء وهن عاريات، لا لأنهن أكثر جمالا، بل لأنهن أكثر تحررا وهنا تجد النساء اللواتي أتعبهن الكبت فرصة لإفراغ الجراب المثقل بأسرارهن. أذكر جيدا، ولم أكن أفهم حينها كيف تقول العجوز "العكري" لنجمة جارتنا مشيرة إلى العلامات الزرقاء على ثديها:

- **واش اديتي حقك البارح ؟**
- **فلقيني المخلوق البارح ؟**
- **ثم تنفجران ضحكا معا... »[2].**

وعليه تمارس النساء في الحمام تظاهرة جسدية بشكل كرنفالي مثير، له طقوسه الخاصة وحتى مواعيده الخاصة أيضا، إذ نجد النسوة في اكتشاف الشهوة يتوجهن

---

[1] فوضى الحواس، دار الآداب ،بيروت ،لبنان، ط16، 2007م ،ص 229.

[2] اكتشاف الشهوة،رياض الريس،بيروت،لبنان،ط2 ،2006م، ص ص 94، 95.

للحمام كل يوم خميس باستثناء فترات الحيض والنفاس ... أي حين يتم حضور مانع بيولوجي فقط أما ما عاد ذلك فالحمام بالنسبة لهؤلاء النسوة طقس مقدس وجب استفاءه واحترامه والمواظبة عليه « والحقيقة أن الزيارة الأسبوعية للحمام تعد جزءا من تقليد عريق يتصل بمنافع العناية بالجسم والاسترخاء »[1] وهو أمر لم يعد ممكنا في أيامنا هذه لكثرة انشغالات المرأة خاصة بعد ولوجها عالم الشغل خارج البيت. وقد جرت العادة في الجزائر أن يكون الذهاب إلى الحمام في وقت مبكر جدا « **باعتبار أن الهدف المنشود لم يكن مجرد الاستحمام بأسرع وقت كما لو أن الأمر في غرفة حمام المنزل ... إنما الغرض كان يتمثل في قضاء نصف يوم على الأقل ... نصف يوم في إعطاء الجسم كل ما يستحقه من عناية واهتمام** »[2] . فلا غروا أن حياة هي الآخرى في فوضى الحواس تستوفي هذا الطقس إكراها ثم استسلاما لنزوات أمها لا غير...

« **وهكذا أصبحت أستمع برحابة صدر، إلى تذمرها وشكواها وثرثرة أمومتها، ولا أملك إلا أن أستسلم مكرهة لكل نزواتها، حتى إنني قبلت أن أرافقها بعد الظهر إلى "الحمام التركي" برغم أنني لم أشاركها يوما حماسها لطقوس النظافة الأسبوعية في هذا الحمام الجماعي** »[3].

بيد أن باني بطلة "اكتشاف الشهوة" تأبى ولوج عالم الحمام العمومي والمواظبة على التطهر والاغتسال فيه بسبب خجلها من جسدها وما لحقه من تطور بيولوجي أخرجها من حدود الطفولة إلى حدود الأنوثة، أي إلى حدود العيب والعار والممنوع والخجل من هذا الجسد الآثم حتى في تكوينه الطبيعي « وقد يمتد هذا الشعور ويتعمق ويتعقد في السنوات المقبلة بحيث يضيف إلى التعقيدات الأخرى للمرأة، تعقيدا جديدا يؤثر على علاقتها بالرجل في المستقبل »[4].

« **في حمام دفوج حيث تعودنا أن نتحمم كل يوم خميس باستثناء الفترة التي كنت أستحي فيها من "خرجات" صدري، فكنت استحم في البيت** »[5].

---

[1] فضيلة كريم، الحمامات، موجز تاريخ الحمامات، ص 60.

[2] المرجع نفسه، ص 60.

[3] فوضى الحواس، ص ص 228، 229.

[4] سلوى الخماش، المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف، دار الحقيقة ،بيروت ،ط3 ، 1981م،ص 34.

[5] اكتشاف الشهوة، ص 94.

أما حياة في فوضى الحواس فبالرغم من خجلها من أنوثتها إلا أنها كانت تلج الحمام مكرهة، وتلف جسدها بالفوطة تسترا لهذا الجسد العاري الذي يعد في نظرها عيبا لأن ثقافة المجتمع والأسرة قد زرعت في نفسها هذه الأفكار المعادية للأنوثة. إذ نجدها تتنكر لأنوثتها من باب تنكر المجتمع لذاتها، كل ذلك تعود تبعته لطبيعة التربية الاجتماعية المبنية على الأنساق الذكورية التي جعلت من جسد الأنثى حاملا لسمات العيب، العار، الخجل وذلك بربط الأنوثة بالخطيئة ومنه بصورة الممنوع والمحرم.

« تزعجني هذه الفكرة، فألف حول جسدي تلك الفوطة من جديد، وأعيد ربطها حول صدري تلقائيا ... ولكن صوت أمي يباغتني، يعيد كلمات أعرفها تماما، لفرط ما سمعتها في هذا الحمام نفسه، مذ أصبحت صبية تستحي من أنوثتها وتختبئ داخل الفوطة بإصرار من يبعد عنه تهمة »[1].

وبما أن الجسد « واقعة اجتماعية ومن ثم، فهو واقعة دالة، يدل باعتباره موضوعا، ويدل باعتباره حجاجا إنسانيا... إنه علامة، وككل العلامات، لا يدرك إلاّ من خلال استعمالاته »[2]. وكل استعمال سيحيل إلى نسق معرفي معين ومنه يحيل على دلالة مثبتة في سجل الذات وكذا الجسد؛ نجد البطلة/حياة تتساءل إذا ما كانت الأنوثة إثم وجب ستره واتقاء تبعته من عيب، ممنوع، إثم، حرام... ؟ ؛ لماذا المجتمع بأنساقه الذكورية يساوي بين الجسد الأنثوي والجنس ؟ هل لأن الأنوثة خلقت وحصرت في الجنس لا غير ؟ وإذا كان الأمر كذلك فمتى تتصالح الذات مع جسدها ومع أنوثتها وتحقق بذلك هويتها المهمشة ؟

إن الكاتبة هنا تصف الوضع المستلب للأنثى لا من باب الوصف إنما من باب دق ناقوس الخطر، فهاجسها هو إعادة الاعتبار للأنوثة وللجسد الأنثوي المشيء من قبل الآخر، وذلك بنقل الأنثى من تلك الثقافة النفزاوية التي تنظر للمرأة على أنها « جسد مؤنث مجرد من العقل »[3] ومرتبط فقط بتلك الوظيفة التحقرية، الدونية المتمثلة في الجنس إلى الوظيفة العقلية السامية كذات لها كيان وهوية ووجود.

---

[1] فوضى الحواس، ص 231.

[2] سعيد بنكراد، السيميائيات (مفاهيمها وتطبيقاتها)، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003م، ص 141.

[3] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة (2)، ثقافة الوهم، مقاربات حول المرأة والجسد واللغة ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،المغرب ،ط 2 ، 2006م ، ص 17.

« هنا أنت تتعلمين من عيون الآخرين، كيف تنكرين جسدك وتضطهدين رغباتك، وتتبرئين من أنوثتك، فقد علموك أن ليس الجنس وحده عيبا، و إنما الأنوثة أيضا ... وكل ما يشي بها ولو صمتا »[1].

من هذا المنطلق أصبح الحمام ملتجأ أمنا للنسوة الهامش والشقوق كي يمارسن حريتهن في التحري والتلذذ بأجسادهن دون وجود لكلمات الحشمة، العيب، الممنوع ... وتقوم مرحلة الاكتشاف هذه على أساس اهتمام الأنوثة المفرط بالجسد بكل تفاصيله ونتوءاته ومظاهره من خلال فعل التعري والاستباحة لكل ممنوع ومحرم. فالنسوة من خلال تفعيل الجسد العاري في فضاء الحمام يسعين لتحقيق حريتهن المقيدة بممارستهن لها كاملة انطلاقا من مداعبة هذا الجسد المستلب بالحك والدلك وتشطيف... **« ففي هذه المدينة التي ليس فيها أي مكان لما هو حميمي وخاص، الحمام هو المكان الذي تنتهك فيه حرمة الجسد وحياؤه. تسلط عليه الأضواء والنظرات الفضولية للنساء تتتالى عليه الأيدي حكا ودلكا وتشطيفا ساكبة عليه كميات هائلة من الماء، وكأنها تريد أن تطهره من أنوثته »[2].**

إن الاختفاء بالجسد الأنثوي المعبأ بتراكمات الأعراف والتقاليد والمبهرج بحكايا الحب وأسراره مع الآخر، يجعل من الحمام العمومي عالم مخفي لا تفتح دفاته إلاّ فيه، ولا تكشف مكامنه إلا بين صولات الأجساد وجولاتها في طقوس من التطهر والتجميل رغبة في أنوثة متكاملة مشتهاة.

« شاهي مستسلمة، مختلفة مجردة من أسلحة السخرية التي كانت تواجه بها الناس، مجردة من حماسها وفرحها وهي تحمل الشموع وتتوجه إلى حمام "دفوج" لتشعلها مع النسوة أيام صباها وتغني معهن وتطلي جسدها بـ "الطاهرة" لتعود ملساء إلى البيت، سعيدة متقدة بحكايات مجموعة النساء تلك... »[3].

بفضل الحمام تتحرر فيه مكبوتات الذات وترتبط في نفس الوقت بالطهارة التي تخرج الجسد الأنثوي من دائرة النجاسة إلى دائرة الجمال والنقاء والكمال الظاهري/الشكلي والرغبة في اشتهاء وفتنان الآخر/الرجل له. فتنسج مخيلة الذات الأحلام والأوهام وتحصرها في بوتقة الاستعباد والتبعية المَرْضي عنها للآخر/الرجل روحا وجسدا وكأن

---

[1] فوضى الحواس، ص 231.

[2] نفسه : ص 232.

[3] اكتشاف الشهوة، ص 93.

طهارة الجسد الأنثوي لا تستحقها الأنثى لذاتها ككيان له وجوده إلاّ ضمن ولوجها عالم الرجل كونه المالك الأحق والمسيطر الأقوى لهذا الجسد لا غير، مما يرسم صورة واضحة في عدم قدرة الأنثى على إقامة مصالحة وافية مع ذاتها ومع جسدها، مما يجعلها دائما في مصاف الخنوع للآخر، والحياة لأجله لا لأجل ذاتها. وكأن وجودها ملغى إلا في حضرته وجسدها مشتهى إلا في خدمته !

« تهمس لي "شاهي": ليتني أتزوج الليلة، أريد رجلا، أريد رجلا... يومها كنت أستخفها، و أتقزز من كلامها ... ولكنها تعيسة، وبائسة على الرغم من أنها اليوم تملك رجلا، يطعمها ويكسيها، ولكنه رجل لا تشعر بحضوره، رجل ترى ظلاله فقط، آثاره، أطفاله، ثيابه، حذائه، رغباته، وكأنه شبح يعبرها من أجل ترك بقاياه »[1].

2- طقوس الجسد الأنثوي المقهور عقائديا واجتماعيا:

قد تحرم المرأة من حقها في الذهاب للحمّام بحكم الدين الذي يرى ذهاب النسوة إليه هو استفعال للمنكرات بين النساء إذ يرى رجال الفقه والأخلاق أن الذهاب إلى الحمّام من المنكرات، بل ومن المحرمات، لما تم ضبط دخول الحمامات بشروط تشمل كل من الرجال والنساء على السواء. إذ يجوز دخوله اضطرارا بنية إما التداوي أو التطهير من مرض. كما « فرض على من يدخله أن يقي بصره من الوقوع في المحظور »[2] فقد ورد عن يحي بن عمر قوله: « حرام على المرأة دخول الحمام إلا النفساء، أو المريضة، ولا تدخل إلا بمئزر سابغ، ويكره الرجل أن يعطيها أجرة الحمام، فيكون معينا لها على المكروه، كما يعاقب متقبل الحمام إذا أدخل غير المريضة وغير النفساء »[3].

وعليه عقائديا يحرم على المرأة ولوج الحمام لأنه بؤرة للتعري والفحش وارتكاب المعاصي والمنكرات، فالمرأة عورة ولا يحل لها أن تبدي مفاتنها لنظيرتها، وعليه حرم على المرأة الحمام دينيا وسمح لها به في ظل العادات والتقاليد والأعراف من باب أن الحمام ضرورة وفيه منافع تتمركز حول "زوال الوسخ وصلاح البدن" وتهيئته إما لطقوس الزواج أو الفراش في ظل الحياة الزوجية.

---

[1] اكتشاف الشهوة، ص 93.

[2] صوفية السحيري بن ختيرة، الجسد والمجتمع، ص 106.

[3] صوفية السحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع، دراسة أنثروبولوجية لبعض الإعتقادات والتصورات حول الجسد، الإنتشار العربي ، دار محمد علي الحامي، العربية بيروت ،تونس، ط2008،1م، ص 106.

بيد أن الجانب العقائدي قد يغلب في كثير من الأحيان على الجانب الثقافي والاجتماعي المتمثل في العادات والتقاليد والأعراف مما يجعل الرجل/الزوج يحرم أهل بيته من الذهاب للحمام، فيعمل هذا المنع على تقليص فضاء الحرية الذي سعت المرأة لخلقه لنفسها كمتنفس للروح والجسد معا. فها هي شاهي في اكتشاف الشهوة تحرم بقرار تعسفي من ولوج الحمام العمومي من قبل زوجها الإسلاماوي، لأنه في العرف العقائدي/الديني حرام ومنه تفقد "شاهي" ومثيلاتها فسحة الحرية المنتظرة خلال الأسبوع.

« - أ لست سعيدة مع زوجك يا "شاهي فأجابت بصوت خافت: - ربما إنه يطعمنا ويكسينا، ولا يتركنا نحتاج شيئا لكنه يمنعني من الذهاب إلى الحمام التركي، ويمنعني من أشياء كثيرة... »[1].

فضلا عما سبق ذكره قد يأتي الحمام بعيدا عن حمولاته المعهودة وذلك باعتباره مكانا لإزالة النجاسة وطهارة الجسد الأنثوي بتشبيبه وتجميله، بيد أن الحمام يتطلب في العرف النسوي طقوس خاصة في الطهارة تجهز قبل ولوج بوابته. وما هذه الطقوس إلا ثقافة تميز ممارسة تطهير الجسد عن غيرها من الممارسات اليومية. فالجسد مقدس عند المرأة، فهو بمثابة إله يبجل ويكرم، لهذا أحيط بطقوس خاصة للتطهر من قبل الأنثى باعتباره منبع وجودها كأنثى وزوجة وأم، ومنه يتم تطهير الجسد بممارسة مجموعة من الترتيبات الخاصة كجلب الصابون، الليفة، الطاسة، الغسول... فالحمام يتضمن كل فئات النساء بمختلف وضعيتهن الاجتماعية والاقتصادية. « فلا فرق بين الفقير والغني والأجنبي ...لا حدود ولا فوارق، الجميع يشتركون في نفس التجربة الاجتماعية »[2]. وهذا ما دأبت عليه الضاوية في رواية نورس باشا، حينما قصدت الحمام العمومي لأول مرة في دزاير مرتع الدايات والباشوات في العهد العثماني.

« في رزمة قماش جمعت بعض الصابون والليفة والغسول الذي حضره كتونيوس في الحال حيث أضاف هذه المرة البابونج الذي اشتراه من حانوت العطارة القريب منا، ذهبت برفقة عائشة وصغيرتي زهور، كان الحمام بالقرب من سوق كبير»[3].

---

[1] اكتشاف الشهوة، ص ص 90، 91.

[2] فضيلة كريم، الحمامات، موجز تاريخ الحمامات، ص 63.

[3] نورس باشا، ص 59

وبما أن الحمام له طقوسه التي يجب أن تأدى كاملة وإلاّ لا يتم تطهر وغسل الجسد الأنثوي كما هو مرجوا بإخراجه من صورة قتامته (النجاسة) إلى صورة مضيئة ناصعة نظرة هي (النظافة).

وقد تكشف لنا الضاوية في النص السردي الروائي عن تلك الصورة الخاصة لحمام سيدنا*، هذا الحمام العريق بعراقة خرافاته التي حيكت حوله وأساطيره التي يحملها بين دفتي بابه، وبما أن طقوس الطهارة والاستحمام خاصة جدا في هذا الحمام، فإن الضاوية حاولت التأقلم مع الوضع باعتبارها أجنبية عن المدينة وقد ترعرعت في عزيز وهي قرية صغيرة يحتضنها الريف، فطقوس الغسل والاستحمام خاصة جدا في الحمام إذ تخضع لقانون العادات والأعراف المتوارثة.

« عند مدخل الحمام علقت قطعة قماش تعني أن الحمام يخص النساء حيث تركني كتونيوس قائلا: - هذا هو حمام سيدنا

تخطيت الباب الأول بحرص تتبعني عائشة وهي تكاد تدخل رأسها بين كتفيها، لم أكن أقل منها دهشة، لكنني أعرف جيدا ما يجب فعله في مثل هذا الموقف »[1].

إن دهشة الضاوية باكتشاف الحمام العمومي وطقوس الطهارة الممارسة فيه ضمن سلسلة من الأفعال المدروسة بعناية وترتيب لبلوغ مأرب الغسل والتطهر جعلها بصورة آلية تتبع تلك الطقوس من خلال التراقب والمماثلة في الفعل وذلك بمراقبة النساء في دزاير وكيف يتم الاستحمام لديهنّ وفق عاداتهنّ وأعرافهنّ المتبعة، لأن تطهير الجسد هو الورقة الرابحة لهؤلاء النسوة ليحافظنّ على جمالهنّ ونظارة أجسادهنّ بنظافتها وتحقيق أنوثتهن المنشودة لإرضاء الآخر/المجتمع، الأسرة، الرجل...

" الذي قطن بمدينة دزاير ما بين (1578 – 1581م) عن Diego De Haédo* تحدث "دييقو دهايدو" " وجود حوالي 60 حمام خاص وحمامين عامين. وقد وصف لنا خصوصا حمامين أهمها حمام حسن باشا (حمام سيدنا) الذي لا يزال يحمل هذا الاسم ليومنا هذا. وقد سمي بحمام حسن باشا نسبة إلى ابن بربروس الذي عاش ما بين (1551 - 1544م) والذي قام ببنائه في تلك الفترة. والحمام يتكون من صالتين الأولى لتبديل الملابس والثانية للاستحمام (ترجمة خاصة).

Abderrahmane KHELIFA, histoire d'El Djazair Bani Mazghanna, éditions Dalimen, 2007, p. 325.

[1] نورس باشا، ص 59.

« جلست أرضا تماما كما فعلت المرأة التي صادفتها عند المدخل وبدأت في نزع ثيابي مثلها، طلبت من عائشة أن تقوم بذات الأمر... تعرت تلك المرأة بالكامل، ولفت على جسدها قطعة قماش وردية اللون مطرزة عند حو افها، لم يكن عندي مثلها لا أنا ولا عائشة، لكنني وضعت وشاح رأسي بدل من ذلك. وجمعت رزمة الملابس مثلها وجعلتها مقلوبة في مكان جلوسي، وضعت خفي مثلها في مرفع خشبي مثبت في أعلى الجدار، همت المرأة بالدخول بعد أن وضعت الصابون والغسول والليفة في وعاء نحاسي لست أملك مثله أيضا... »[1].

كل هذه الطقوس المذكورة تدخل في باب العادات والتقاليد المميزة لمدينة دزاير وغيرها من المدن الأخرى والتي يمكن تحديد معالم الغسل والتطهر فيها بذكر أدوات وسلوكات متبعة ثم توارثها جيلا بعد جيل، بحيث يمكن تحديدها في الجدول المشار إليه:

أدوات الحمام	الهدف من استعمالها
- قطعة القماش وردية اللون مطرزة عند حوافها.	يتم ستر الجسد الأنثوي بها عند التحري والمباشرة بالغسل وتثميم هذه القطعة بسمة/التطريز أما اللون الوردي ما هو إلا دلالة على الأنوثة. قد يتم شراء هذه القطعة من القماش أو صنعها من قبل نسوة دزاير.
- جمعت رزمة الملابس مثلها وجعلتها مقلوبة في مكان جلوسي.	قلب الملابس يعد طقس من طقوس حفظ الملابس من التبلل بالماء أو إلحاق النجاسة بها وحفظها أيضا من عبث الشيطان. وما هذا السلوك إلا « لتروم به المرأة إبعاد الأرواح الشريرة التي قد تكون كائنات فوق طبيعية لا مرئية للعين البشرية »[2].
- وضع الخف في مرفع خشبي.	لحماية الخف من البلل أو التلف عند الغسل أو الضياع، إذ يتم حفظه في مرفع خشبي مخصص لذلك. وهذا يدخل ضمن النظام المتبع في الحمام.
- الصابون، الغسول، الليفة	أدوات التطهر، يتم اقتناءها عند الاستحمام وهي جزء هام من طقوس الغسل. فأما الصابون فلطهارة الجسد بينما الغسول لطهارة الشعر والليفة للفرك والحك والدلك.

[1] نورس باشا، ص 60.

[2] مالك شبل، الجنس والحريم، وروح السراري، السلوكات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير، ترجمة عبد الله زار، أفريقيا الشرق، 2010م، ص 88.

- وعاء نحاسي	هو وعاء مصنوع من النحاس الأبيض المزين بنقوش بديعة تستعمله المرأة أثناء الغسل لصب الماء على كامل جسدها، أو لجلب المال عند الحاجة إليه.

ما كانت هذه الطقوس في الاستحمام بجديدة على نساء دزاير، إنما جديدة بالنسبة لضاوية وعائشة كونهما امرأتان عاشتا في القرية ولا علاقة لهما بعادات نسوة المدينة. لهذا وجدوا في هذه الممارسات والعادات المتبعة غرابة لم يألفوها، مما جعل نسوة الحمام يتفطنّ لتصرفاتهما المضطربة وبأنهما غريبتان عن الحمام وعن المدينة.

« لقد استعملت وشاح رأسي كفوطة داخلية، وخرجت بها إلى الزقاق مبللة تماما، كما أنني حملت الماء من ذلك الحوض الرخامي بيدي بينما كانت النسوة تغرِن الماء بوساطة إناء نحاسي منقوش، حتى عائشة أفحمتني أمامهن، لقد أغمي عليها أكثر من مرة بسبب الحرارة الرتفعة ... لقد تفطن جميعهن أنني غريبة، كما أن وشاحي يختلف عن وشاحهن، أريد وشاحا أبيض حريريا طويلا مثلهنّ»[1].

فلا ريب أن طقوس الطهارة في الحمام هي طقوس مرتبطة بالهوية الأنثوية في حد ذاتها، فالسلوكات المتبعة لنظافة الجسد سلوكات متوارثة جيلا بعد جيل، وعليه نجد الأمور تخرج هنا من نطاقها البيولوجي (طهارة الجسد) لكي تتخذ بعدا اجتماعيا وثقافيا وحتى إيديولوجيا حينما ترتبط بتاريخ المجتمعات وسيرورتها فكل أم نلقن ابنتها منذ نعومة أظافرها كيف تصبح « امرأة ضمن مجموعة من القوالب الجاهزة والاتجاهات والمقاييس التي تحدد الأنوثة المصادق عليها »[2] وذلك بحثها على المحافظة على الإرث من عادات، تقاليد وسلوكات عن طريق « مجموعة من حركات وكلام في طابعها التجديدي »[3] كتعليمها كيف تعتني بجسدها وجمالها، وكيف تماثل هويتها كأنثى هوية مثيلاتها في الغسل، والتطهير ... لتحقيق الكمال الأنثوي المنشود، شأنها شأن نسوة دزاير.

قد يرتبط الحمام في الذاكرة الجمعية الأنثوية بالخرافة والأسطورة ليعطي للمكان طابع القداسة والهيبة والتبجيل، شأن حمام سيدنا في رواية نورس باشا. هذا الحمام الذي ارتبط اسمه بأسطورة سيدنا التي مفادها « **أن امرأة تأخرت في البيت السخونة**

---

[1] نورس باشا، ص 61.

[2] الجسد الأنثوي وهوية الجندر، ص 273

[3] درية شريفاتي مرابطين، الحركات النسوية أو ثقافة الحياة اليومية النسوية، ضمن سلسلة دفاتر نسائية، تحت إشراف زينب الأعوج، دار المصباح للنشر، الجزائر، 1991م، ص ص 126، 127.

وبقيت لوحدها، وعندما كانت تغرف الماء من الجابية الرخامية خرج لها أسد كبير فصارت تصرخ وتقول: يا سيدنا ... يا سيدنا على أساس أنها تقدم طاعتها وولاءها للجن الذي ظهر في هيئة أسد ... بعد هذه الحادثة أصبح الجميع ينادونه بحمام سيدنا »[1].

وبما أن المرأة/الأنثى أكثر تقبلا لمثل هذه الخرافات والأساطير كرست لتضليلها أكثر للخنوع والإذلال لا لسلطة الرجل فقط إنما أيضا تقديم الولاء حتى للجن وكأن ظاهرة العبودية والتبعية سمة لصيقة بها دون غيرها ولا تتأكد أنوثتها إلا بإذلالها وقهرها وتبعيتها سواء للآخر أو لغيره. وما هذا إلا نموذج من نماذج كثيرة عملت القوالب الذكورية على ترسيخها في المجتمع لأن الرجل من مصلحته الحفاظ على المكانة المتدنية للمرأة بزرع الجهل فيها والخرافات بكل أشكالها لغاية في نفس يعقوب كما يقال، هي « **دور الرجولة التي تأمر، وتقرر، وتطالب، وتحمي، وتدافع ... وتتمادى ... »[2].**

[1] نورس باشا، ص ص 85، 86.

[2] فوضى الحواس، ص 38.